الكتاب الرابع

العالم إرادةً

المظهر الثاني

ببلوغ معرفة الذات، يكون توكيد وإنكار
إرادة الحياة

لقد ظهرت لحظة المعرفة في المشهد الآن؛ ومن هنا تنشأ الرغبة.

Tempore quo cognitio simul advenit, amor e medio supersurrexit, Oupnek'hat, studio Anquetil Duperron, Vol. ii. P. 216.

-٥٣-

إن الجزء الأخير من مناقشتنا يطرح ذاته باعتباره الأكثر جدية؛ لأنه يتعلق بأفعال الناس، بموضوع الاهتمام المباشر بالنسبة لكل شخص، وهو الموضوع الذي يمكن أن يكون دخيلاً عليه أو لا يكترث به أحد. والحقيقة أن إرجاع كل شيء إلى مجال الفعل إنما هو سمة مميزة تمامًا لطبيعة الإنسان، لدرجة أنه– في كل استقصاء منظم يقوم به– سينظر إلى ذلك الجزء من طبيعته المرتبط بمجال الفعل باعتباره خلاصة مضمون طبيعته في مجملها، على الأقل بقدر ما يشغل اهتمامه في هذا المجال، حتى وإن لم يكن يشغل اهتمام أي أحد غيره. وبهذا الاعتبار، فإن هذا الجزء التالي من مناقشتنا يمكن أن نصفه– وفقًا للتعبير السائد المألوف– بأنه فلسفة عملية في مقابل التناول النظري الذي كان يشغل اهتمامنا حتى الآن. ومع ذلك، فإنني أرى أن كل فلسفة تكون دائمًا نظرية؛ من حيث إنها لا بد أن تتخذ بالضرورة اتجاهًا تأمليًا خالصًا، لا اتجاهًا توصيفيًا. فالقول بأنك يمكن أن تصبح عمليًا، أن تصبح قادرًا على أن توجه سلوكك، على أن تغير من شخصيتك– هو إدعاء عفا عليه الزمن بحيث ينبغي أن نتخلى عنه حينما نتبصر الأمر في مجمله. لأنه حينما يتعلق الأمر هنا بجدوى الوجود أو لاجدواه، وبالخلاص أو العقاب الأبدي؛ فليست التصورات الجامدة للفلسفة هي ما يقرر الأمر هنا، وإنما الطبيعة الباطنية العميقة للإنسان نفسه، الروح التي تسكنه وتوجه سلوكه والتي لم تختاره وإنما هو الذي اختارها كما يقول أفلاطون، وكما يصففها كانط بأنها "شخصيته الذهنية" intelligible character. فالفضيلة لا يمكن أن تُعلَّم اللهم إلا بقدر ما يمكن للعبقرية أن تُعلَّم، والحقيقة أن التصور لا يجدي بالنسبة لها مثلما لا يجدي بالنسبة للفن، فهو يمكن أن يُستخدَم فقط كأداة في كلتا الحالتين. ولذلك فإننا سنكون من الحمقى حينما نتوقع من مذاهبنا الأخلاقية وفلسفة الأخلاق يمكن أن تخلق أناس فضلاء شرفاء أتقياء، مثلما سنكون من الحمقى حينما نتوقع من علم الجمال أن يخلق شعراء ومصورين وموسيقيين.

إن الفلسفة ليس بمقدورها سوى أن تفسر وتشرح ما يكون موجودًا وفي متناولنا، فليس بمقدورها سوى أن تستحضر أمام المعرفة المجردة الواضحة لملكة العقل الطبيعة الباطنية للعالم التي تعبر عن ذاتها لكل شخص بشكل مفهوم على نحو عياني، أي كشعور. ومع ذلك، فإنها تسلك سبيلها هذا